الاستشراق

تقديم : عبد النبي اصطيف

« الاستشراق » Orientalism لادوارد سعيد ، كتاب جديد صدر في اواخر العام الماضي ، وغدا الشغل الشاغل لدوائر الاستشراق في المملكة المتحدة واميركا ، يناقشه المستشرقون ويحللونه ، يتدارسون افكاره حائرين ماذا يفعلون ، يهاجمون بعضها ويقرون ببعض ، وحالهم كحال الذين شغلوا بشعر المتنبي • لقد فتح الكتاب أعينهم على حقيقة مريرة ، وفاتحهم بواقعهم الذي يعيشون فيه : ان الشرق الذي تدرسونه ، وتكتبون حوله ، وتناقشون شؤون اهله ، بعيد جدا عن الشرق الحقيقي ، انه مجرد تصور خلقتموه ، وعشتم معه وصحبتموه طويلا ، وان الطريق التي سلكتموها منذ ان خلق الاستشراق لن تقودكم الى شيء ، تلك هي رسالة الكتاب اليهم •

والأستاذ الدكتور ادوارد سعيد ، هو عربي فلسطيني يدرس في جامعة كولومبيا ، وهو برفيسور بار Parr للأدبين الانكليزي والمقارن فيها ، كان استاذا زائرا للأدب المقارن في جامعة هارفارد ، وزميلا في « مركز الدراسة المتطورة في العلوم السلوكية Center for Advance Study in the Behavioral Sciences » في ستانفورد • كما والقى محاضرات Gauss في النقد في جامعة برنستون عام ١٩٧٧ • وقد نال كتابه (بدايات : قصد ومنهج) Beginning : Intention and Method جائزة ليونيل تريللنغ Lionel Trilling من جامعة كولومبيا • وهو واحد من ابرز نقاد الأدب في الولايات المتحدة الأمريكية •

وقد ظفر كتابه الأخير « الاستشراق » باهتمام قل ان يحظى به كتاب حديث ، فقد ظهرت عنه عشرات المراجعات التي كتبها ابرز اعلام المستشرقين في مختلف الصحف والمجلات ، في اوربا واميركا ، والقيت فيه العديد من المحاضرات ، ونوقش في مختلف الدوائر الثقافية في ندوات خاصة وعامة • وكان من ابرز من كتب عنه الأستاذ البرت حوراني الزميل في كلية سانت انتوني واستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث في كلية الدراسات الشرقية بجامعة اكسفورد ، وصاحب مؤلفات عديدة ، ربما كان من ابرزها « الفكر العربي في عصر النهضة » الذي ترجم الى العربية • وقد استاذن صاحب هذه السطور الأستاذ حوراني في ترجمة مقالته فوافق مرحبا ، وتفضل فنظر في الترجمة بعد الانتهاء منها •

وبالطبع فاني اود ان الفت انتباه القارىء الى ان ترجمة مقالة الأستاذ حوراني لا تعني موافقته على جميع آرائه في الكتاب فرغم ان مقالته تمثل وجهة نظر جادة ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار ، لأنها تصدر عن مستعرب عربي ذي خبرة واسعة بشؤون الاستشراق والدراسات الاستشراقية ، الا انها من جهة اخرى غير بعيدة عن متناول النقد ، واخيرا اود الاشارة الى انها كتبت باسلوب متميز حقا • ويبدو لي ان ذلك عائد الى تأثر غير مباشر لأسلوب كتاب « الاستشراق » في اسلوب مراجعه • وقد حاولت ما امكنني ان انقل شيئا من هذا الأسلوب في ترجمتي للمقالة التي كادت ان تكون في فقرات منها قطعة ادبية رائعة •

آب ١٩٧٩
كلية سانت انتوني اكسفورد

الطّريق إلى المغرب[1]

قـــــراءة في الاســتشــراق[2]

بقلم: ألبرت حوراني
ترجمة : عبدالنبي اصطيف

ان موضوع هذا الكتاب القوي المقلقل هو الطريقة التي تخلق بها التقاليد الفكرية وتنقل • انها ــ كما يحاج ادوارد سعيد ــ لا تنهض ببساطة في عزلة من عقل المفكر أو الباحث • ولربما يحاول « الباحث أن يصل الى مستوى من الحرية النسبية من الواقع اليومي والمر » ولكنه لن يستطيع أن يهرب أو يتجاهل تماما « ارتباطه كموضوع انساني بظروفه المحيطة » •

••• ان الامكانيات من اجل عمل ماثل في الثقافة هي بالنسبة الى عقل عظيم واصيل غير محدودة اطلاقا •• فعمل السابقين ، والحياة المؤسسية للحقل الدراسي ، والطبيعة الجماعية لاية منشاة تعليمية ، كل هذه ـ فضلا عن الحديث عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ـ تميل الى الحد من تاثيرات نتاج الباحث الفرد • ان حقلا كالاستشراق له ذات تراكمية ونقابية ••• وقد كانت النتيجة اجماعا معينا : اشياء معينة ، انواعا معينة من البيانات ، وانواعا معينة من العمل بدت للمستشرقين انها صحيحة » •

ان « **الاستشراق** » هو المثال الذي يستخدمه سعيد ليوضح موضوعه ، وهو يعني به شيئا دقيقا : الباحث الذي يدرس الشرق (وبالتحديد الشرق المسلم) ؛ والكاتب الخيالي الذي يتخذه موضوعا له ؛ والمؤسسات المعنية « بتعليمه ، وتهدئته ، وحكمه » ، كلهم يشتركون في أشياء : تمثيل معين له ،أو فكرة أن «الشرق» يعرف بأنه غير «الغرب»، غامض ، غير متغير ، وفي النهاية ، أدنى منزلة •

---

١ ـ انظر Albert Hourani, « The Road to Morocco », **The New York Review**, March 8, 1979, PP. 27-30.

٢ ـ انظر Edward Said, **Orientalism**, Routledge & Kegan Paul, London, 1978, 368 PP.

ان تمثيل الشرق هذا قد خلقه العقل الغربي بحرية تامة نسبيا ، لأن الشرق كقوة ـ شُعر بها وتم اختيارهـا بصدق ـ غائبـة تماما عن الثقافة الغربية تقريبا. فقد طورت وحفظت بنوع من الشراكـة الضمنية بـين الباحثين والكتاب وبين أولئك الذين ظفروا بالامبراطوريات وحكموها . وكان الباحثون والكتـاب علـى وعـي بالقـوة الغـربيـة كحقيقة مطلقة في شرق سلبي لا حول له ينتظر أن يحكم ويحتكر ، وقـد استنتـج الحكـام مسوغات أخلاقية وبالتالي نوعا من القوة من الفكرة الغربيـة عن الشـرق . وقد تمـت الوساطة في هذه الشراكة عن طريق المؤسسات ـ طرق رسمية معنية للتعليم والكتابة ـ التي حددت ماذا يمكن أن يدرس أو يقال عن الشرق .

وطريقة التفكير التراكمية هذه عن الشرق ، والتصرف تجاهه ، هي ما يدعوه ادوارد سعيد **بالاستشراق** . وبالطبع فان أي نوع من الفكـر يقتضي اقامة التمييـزات ، وتقيـم الحدود ، ولكن هـذا النوع من التحـديد في رأيه هو الذي كان ضارا بشـكل خـاص . وربما قام بدور الحافز للخيال الأوربـي ، وساعد على تشكيل الحس الغربي بالهوية ، ولكنه ما دام قد اعتمد في النهاية على اختلافات دينية وثقافية ، فانه قاد الى سوء فهـم للعمليات التاريخية . لقد جعل أمر رؤيـة الشرقيين ككائنات بشرية فردية أمرا غـير ممكن ، ما دامت ذواتهم قد استغرقت بفكرة « المسلم » « العربي » أو « الشرقي » ، وأدت ـ كجميع المقابلات الثنائية البسيطة لـ «نحن» و « هم » ـ الى اثارة محاكمات قيمة أخلاقية . ان الشرق يرى غريبا ، بعيدا ، مؤذيا ميتـأما لم نُعِد اليـه الحياة ، ومـأوى « للهولات والشرور والارهاب والمسرات والرغبات » .

ويجد السيد سعيد نواة هذه الرؤية للشرق في المواجهات الأولى لأوربـا الغربية مـع الاسلام . فالصراع من أجل التحكـم بحوض المتوسط سبب صدمة نفسية متكررة للعقل الأوربي ، لا يمكن التحكم بها الا من خـلال محاولة شرح الاسلام بكلمات مألوفة ، كوحي كاذب ، أو بدعة مسيحية . وعندئـذ ، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عُلمنت بنى الفكر الموروثـة عن المـاضي ، وأعيـد توزيعها وأصلحت ، وتحت تأثير النوع الجديد من الفضول الفكري وتوسع القوة الأوربية تم تحويل صورة العدو المسلم الى الصورة الحديثة للشرقي . عندها ظهـر أوائل المستشرقـين المحدثـين : الفـرنسي Anquetil-Duperron الذي اكتشف النصوص الأفستية Avestan texts وترجمها ، والانكليزي السير ويليام جونـز Sir William Jones الـذي ترجم الشـعر السنسيكريتي ، والقوانين الهندية ، والـذي كان متمكنـا لتـوه من العربيـة والعبريـة والفارسية قبل أن يغادر انكلترا الى الهنـد عام ١٧٨٣ . وقد كان جونز هاما على نحـو خاص ، لأن مهنته كانت وثيقة الصلة بالدور الأول والفعال والدائم للأوربيين في مجتمـع شرقي : مجتمع شركـة الهنـد الشرقيـة في البنغال . وفي حياته وآثاره تغدو الصلة بين السيطرة السياسية والحاجة الى الفهم جلية .

وبعد جيل جاء غزو أوربي لقلب الشرق المسلم . ان الاحتلال الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨ لم يكن حادثا من حوادث حروب الثورة فقط ، ولكنه كان حركة من حركات الخيال أيضا؛

فقد قرأ بونابرت كتاب الكونت دوفولني Comte de Volney « **رحلة في مصر وسورية** » **Voyage en Egypte et en Syrie** وكتابات أخرى عن مصر ، وساعده ذلك على تكوين تصرفاته هناك : لقد كان على وعي بأن أربعين قرنا كانت تزدريه وجنوده معا : ظن في نفسه أنه أتى ليعيد الحياة الى عالم ميت • وقد قام الباحثون والعلماء الذين صاحبوه بأول عملية تخصيص لمجتمع وثقافة شرقيين •

وربما أفادت الحملة الفرنسية « الجغرافية الخيالية» أكثر مما أفادت مصر الحقيقية • فتمثيل الشرق فكريا وخياليا ، والسيطرة عليه واعادة الحياة اليه ، كل هذه المساعي ما كانت الا لتخلق « حقل » المستشرق خلال السبعين سنة ـ أو ما يقاربها ـ التي تلت • لقد اكتشف الباحثون النصوص وحققوها واقتطفوا منها ، وترجموها ، وفسروها : في البداية كجهد فردي • وبعد ذلك قنّن عملهم وتجسد في مؤسسات وتقاليد • والسيد سعيد معني أساسا باثنين من هذه التقاليد : التقليد الفرنسي الذي يبدأ ب س ، دو ساسي Silvestre de Sacy صاحب كتب في النحو ، ومختارات عربية ؛ والتقليد الانكليزي الذي يرجع الى ادوارد ويليام لين Edward William Lane المعجمي ومترجم الليالي العربية، ومؤلف كتا بلا يزال مقروءا على نحو واسع هو : « **وصف لسلوك المصريين المحدثين وعاداتهم** » **An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptian**

وقد أغني هذان التقليدان بأفكار مستمدة من ثقافة العصر العامة • وادوارد سعيد محق في تأكيده على فقه اللغة ، وخاصة على ارنست رينان ، الذي طبّق مناهجه في دراسة اللغات السامية • لقد كان فقه اللغة أحد الدراسات الأساسية في القرن التاسع عشر ، بل كاد يكون ديانة معلمنة • وقد دعاها رينان « العلم الدقيق لموضوعات عقلية » • ويبدو أنها تقدم طريقة لا لفهم اللغات فحسب وانما لفهم طبيعة الجنس البشري وتاريخه أيضا • وباعادة اللغات الى جذورها ، استطاعت فرزها الى أسر ، واقترحت أن أسر اللغات يمكن أن تكون أسرا للذوات التي تعبر باللغة عن نفسها أيضا : الديانات والأساطير ، الثقافات والعروق •

ويمكن ترتيب اللغات ضمن العائلة نفسها في نظام أجيال • وهكذا فان تصنيف اللغات والثقافات يمكن أن يؤدي الى تأريخها ، والى تاريخ انساني صرف لا تلعب فيه الميتافيزياء أي دور • ولكن السيد سعيد يؤكد أن فقه اللغة نفسه ـ كما استخدم في الحقل الاستشراقي ـ كان مقصورا على الاطار الاستشراقي ، وكان يستخدم ليعطي قاعدة علمية للقضاء الثنائي الموجود لتوه • ان اللغات السامية بالنسبة الى رينان هي أساسا أدنى من اللغات الآرية ، وغير قادرة على تجاوز نقطة معينة في تطورها : « اننا نرفض بأن نسلم بأن للغات السامية القدرة على تجديد أنفسها » • ويقترح السيد سعيد في فقرة رائعة على نحو خاص أن هذه الفكرة أتت من تطبيق أفكار معينة ، كانت سائدة في علم التشريح في ذلك العصر ، على فقه اللغة : ان الساميات بالنسبة الى رينان هي ما كان بالنسبة الى اتين سانت ايليير Etienne Saint-Hilaire مسخا تشريحيا، ليست استثناءً بل هي شذوذ ، أو ظاهرة ذات تطور منحط أو مقيد •

وقد سارت عملية الاكتشاف جنبا الى جنب مع عملية التفحص العلمي • وذهب بعض الرحالة الى الشرق كباحثين ـ مثل لين Lane ـ لجمع المواد ، ومضى بعضهم ـ كشاتوبريان Chateaubriand ـ ليكتشف ذاته أو يقبض عليها ، وذهب آخرون ـ كبيرتن Burton ـ لخليط من الدوافع • وفي تحليل دقيق ليس فقط لما قالوه وانما للطرق التي قالوه بها ـ الترتيب ، الأسلوب، اللهجة ـ يميط السيد سعيد اللثام عن الاستشراق المستتر وراء اختلافاتهم في المنهج• لقد كانت حقيقة السيطرة ، توكيد سيادة أوربا ، الواقع الماثل ، وبدا الشرق ككائن ساقط ، جذاب ، ولكنه مليء بالمخاطر وخاصة الخطر الجنسي •

لم يكن الشرق الحديث الذي وجدوه هو الشرق الحقيقي ، وانما كان صدفة ميتة ، لا ينفث الحياة فيها من جديد الا أوربا : كان السفر الى الشرق نوعا من الحج ، لا يثمر الا عندما يواجه المسافر الأخطار ويتغلب عليها ، أو عندما يرى أماكن غريبة يدير ظهره لها ويعود الى نفسه مغتنيا• وعلى الرغم من المشابهات بين الموقفين الفرنسي والانكليزي ، فان السيد سعيد مدرك لاختلافهما ، وربما هو يغالي في ذلك • فهو يقول ان الشرق المسلم بالنسبة الى البريطانيين ـ الذين أقاموا آمنين في الهند ـ منطقة للسيطرة الممكنة ـ الموجودة بالقوة ـ وأما بالنسبة الى الفرنسيين فقد كانوا مسكونين باحساس الخسارة الفادحة • ولكن الفرنسيين في تلك الفترة لم يخسروا الشرق الأوسط على نحو لا يمكن استعادته فيه ، وقد كسبوا لأنفسهم مقاطعة جديدة للخيال في الجزائر •

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر يبدأ طور جديد • فالحكومات الامبريالية تأخذ على عاتقها مسؤوليات جديدة : البريطانيون في مصر ، والفرنسيون في تونس • وبعدها يتم تقسيم الامبراطورية العثمانية ـ الذي أنذر بالحرب العالمية الأولى ـ في نهايته ، وتسقط المقاطعات الناطقة بالعربية في أيدي البريطانيين والفرنسيين ، وتصبح العلاقة بين العمل العلمي والعمل السياسي أوثق وأكثر تعقيدا، وتغدو المؤسسات ـ التي يتم من خلالها بث التقليد الاستشراقي ـ أكبر وتنظم بشكل أكثر رسمية ، وتوثق صلاتها بالحكومات • وضمن هذا التقليد تنبثق نماذج انسانية جديدة من المستشرقين• وعندها يظهر في الجيل الذي سبق عام ١٩١٤، عصر التوسع الجذل المولع بالقتال والواثق من نفسه ، « العميل الامبريالي » الرجل الذي يضع معرفته وأفكاره ، شعوره ودوافعه في خدمة الامبراطورية •

ان السيد سعيد ـ كدارس لجوزيف كونراد Joseph Conrad ـ يتعامل باطمئنان مع هذا النوع من الشخصية الغامضة والخفية والتي لا يمكن معرفتها في النهاية ، والباحثة عن خلاص شخصي عن طريق مهمة سرية أو صعبة • والممثل النمطي هو ت ، ا ، لورنس T. E. Lawrence ولدى السيد سعيد أشياء جديدة ونافذة ليقولها عن الدوافع المتشابكة والمعقدة في حياة لورنس النشطة ، وعن السرد والرؤية الشخصية في « **أعمدة الحكمة السبعة** » **Seven Pillars of Wisdom** • وكما هو

الشأن بالنسبة الى بونابرت ، فانه بالنسبة الى لورنس ـ وبواسطة رؤية خيالية لمحمة، تعاش أولا ثم تكتب ، ـ « طوى هذه الأمواج من الرجال في يدي » · لقد أعيدت صياغة أعماله اذن في الرؤية التي نجدها في رائعته المصدوعة ، ولكن من الصعب تحديد أين ينتهي السرد وأين تبدأ الرؤية ، وفيما اذا كان غرض لورنس « أن يصنع أمة جديدة ، ويستعيد نفوذا مفقودا » أو يصنع نفسه ويكتشفها · انه يصبح هو نفسه الشرق ، رجل واحد يصبح التاريخ برمته ·

وتتغير الرؤية الاستشراقية في السنوات التي تلي عام ١٩١٨ ، فأوربا متحكمة بالشرق ، وقوتها النهائية لا يمكن زعزعتها ، وحقها في أن تحكم لم يشكك به الا نادرا · ولكن نهوض شعوب آسيا أصبح يرى تحديا ، ومستشرق العصر هو المستشار الذي ـ في حين يقبل الواقع النهائي للسيادة الغربية ـ يحاول أن يُري الطريق الى حل سلمي للخلافات ، الى نوع من القبول المتبادل · وقد تتوج التقليدان الانكليزي والفرنسي بشخصيتين اثنتين يبدو أنهما تمثلان عصارتيهما : الأول هو الفرنسي لوي ماسينيون Louis Massignon الذي كانت اثارته للكاتب والشهيد الصوفي منصور الحلاج قد تشكلت ليس عن طريق التقليد الأوربي في الدراسات الاسلامية وحسب ، وانما عن طريق حساسية جمالي ووعي كاثوليكي كان مما يميز الفرنسي في ذلك الوقت ؛ والثاني هو الأوسكوتلاندي هاملتون غيب Hamilton Gibb الذي ترجع صلته الى الأصول نفسها مارة بتوماس أرنولد Thomas Arnold وروبرتسون سميث Robertson Smith ، والذي تستدعى رؤيته في استمرارية الجماعة الاسلامية وتطورها عبر التاريخ بسهولة الى الذهن الواعي بالمسؤوليات الامبريالية والمعتنق لرأي بروتستانتي معين للكنيسة ·

ان السيد سعيد يكتب عن كليهما باحترام لثقافتيهما، ولنوعية فكريهما، ولشجاعتهما، ولكنه يعتقد أنهما قد وقعا في شرك قالب العقل الاستشراقي : فالدراسات الشرقية لم تعد على تقليدها بالنظرة النقدية ، كما كانت العلوم الانسانية تفعل في ذاك الوقت · وكانت الحقيقة النهائية بالنسبة الى ماسينيون وغيب كليهما شيئا ما يسمى « الاسلام » ماثلا الى الأبد ، ومختلفا دائما عن الغرب ، حيث ذابت فردية الكائنات البشرية وفروقات الأزمنة والأمكنة ·

لقد توفي ماسينيون عام ١٩٦٢ ، وغيب عام ١٩٧١ ، وبالنسبة الى أولئك الذين عرفوهما منا ، ويمكن لهم أن يقارنوا ذكرياتهم بما يكتبه السيد سعيد عنهما ، فان شكوكا وتساؤلات يمكن أن تثار · ان كتابته قوية ورائعة (هي أحيانا قوية الى درجة القلقة ، ورائعة أحيانا أخرى الى درجة عدم الوضوح) ولديه براعة النفاذ الى الارادة الانسانية وتصوير بنية الرؤى الانسانية ، ولكن أليس من الممكن أن يكون هو نفسه قد سقط في الشرك الذي قدمه ، وأنه قد أغرق الفروقات الانسانية في مفهوم مجرد اسمه « الاستشراق » ؟ ما هي منزلة هذا المفهوم ؟ وما هو نوع الصلاحية التي يمكن أن يزعمها للبيانات العامة التي يدلي بها ، بيانات ك : « **المستشرقون ليسوا مهتمين بمناقشة الأفراد**

ولا قادرين عليها » ، ان المستشرق متميز « **بغياب تعاطف مقنع بمعرفة محترفة** » • بمعنى ما ، ان الجواب سهل ، فما قام به السيدسعيد هو انشاء نمط نموذجي للمستشرق؛ مصنوع من عدد من العناصر المتصلة ببعضها البعض منطقيا ، والبعيدة عن تأثير أية عناصر خارجية أو عارضة • ولكن هذه الأنماط النموذجية ، وكما يعرف كل عالم اجتماع ، ينبغي أن تستخدم بعناية وحذر حتى يمكن لها أن تفسر الوقائع الخاصة ، أو الكائنات البشرية • فليس هنالك من شخص يمثل بشكل كامل نمطا واحدا ، ان كل فرد ينبغي أن يُرى على ضوء عدة أنماط • ان نمطا واحدا من هذه الأنماط يمكن أن يشرحه أكثر من الأنماط الأخرى ، ولكن بعض النكبة الفردية التي لا يمكن أن تعزى سيبقى في النهاية • اننا ، اذ نبدي اعجابنا بأناقة هيكل السيد سعيد ، ينبغي أن نظل نسأل الى أي مدى يمكن أن يخدم كمبدأ في شرح الكائنات البشرية التي يكتب عنها • السياسيون وخدمة المستعمر ؟ على وجه الاجمال ، نعم • ان استشهاداته من اللورد كرومر Lord Cromer (الحاكم البريطاني لمصر بعد ١٨٨٣) وآخرين مناسبة ، وكان بامكانه أن يجد الكثير مما يبرهن على نقطته : التضاد الواعي « للشرق والغرب » وأفكار ك « الاستبداد الشرقي » و « الركود الشرقي » وفكرة أن الشرقيين لا يفهمون غير لغة القوة، أعطت بالفعل الانكليز والفرنسيين ضمانة أن حكمهم للشعوب الشرقية كان طبيعيا وصحيحا • والكتّاب الخياليون يمكن أن يفهموا أيضا على أنهم يعملون ضمن هذه الافتراضات، وخاصة كتاب العصر الرومانتي، شاتوبريان لامارتين Lamartine فلوبير Flaubert دونرفال De Nerval فشرقهم كان حصيلة الخيال ، ومناهج السيد سعيد المصقولة والدقيقة في التحليل ، أدوات جيدة في تعرية بنية الخيال الأدبي •

ولكنه ، ربما كان لا يسير على أرض راسخة كهذه ، عندما يكتب عن الباحثين • وقد وجدهنا أيضا استشهادات مخبرة : قول تيودور نولدكه Theodor Nöldeke ان عمل حياته قد أكد فقط رأيه السيىء في الشعوب الشرقية ، أو زعم غيب Gibb أن العقل العربي غير قادر على التفكير العقلي • ان بعض عناصر « الاستشراق المستتر » كانت ماثلة حقا في عقول غالبية باحثي الاستشراق في الفترة التي يعالجها • واذا لم تكن ازدراءً خاصا لهؤلاء الذين يكتبون عنهم ، فقد كانت على الأقل اعتقادا بأنهم فهموا هؤلاء الناس وعرفوا لغاتهم ومعتقداتهم أكثر منهم • ولكننا ينبغي أن نظل نسأل الى أي حد دخل هذا الاعتقاد الى عملهم ورسم اتجاهه وحدوده • وحتى نجيب على هذا فاننا ينبغي أن نمضي الى ما وراء الملاحظة العابرة Obiter dicta الى عملهم الجدي المحترف ، وأن نسأل فيما اذا شكّل وشوّه عن طريق هذا التضاد الفج بين الشرق والغرب ، أكثر مما شكل عن طريق مفاهيم أكثر ملاءمة لموضوعها ، والى أي مدى قامت نتاجاته بتثبيت هذا التضاد وتعزيزه •

ليس من الضروري أن تكون ذكيا حتى تصبح باحثا ، وقد كان هناك الكثير من الباحثين الذين لم يظهروا حتى في أكثر أعمالهم وزنا أية براعة باستثناء براعات اللغة ، ولم يستخدموا أية أفكار باستثناء تلك التي كانت معروفة في العصر بشكل عام • وحتى

المستشرقون العظام وجدوا أنفسهم مكرهين بسبب الظروف أن يتحدثوا ويكتبوا في أشياء تتجاوز الى حد بعيد حدود كفاءاتهم الحقيقية • وقد أفادوا في ذلك من الأفكار الملتقطة من الجو المحيط • وعندما كتب أغلبهم عن السياسة، أو علم الاجتماع، أو الشخصية القومية، أو التاريخ ، أو الأدب ، فانهم كتبوا ذلك كهواة على وجه الاجمال •

ان هناك على أي حال خيطا مركزيا واحد من الاهتمام ــ يسري في نتاج الباحثين الاسلاميين العظام ــ بأصل جميع أنظمة الفكر التي حاولت الابانة عما يعتقد المسلمون أنه الوحي الذي منح للنوع الانساني من خلال النبي محمد : الحديث، القانون ، علم الكلام، والفكر الصوفي • ان قرنا كاملا من الدراسة لهذه الأمور قد أنتج عملا لا يمكن اعتباره مؤدى على نحو سيىء • ففي هذا العمل استعمال حذر ومتأن للمصادر الأصلية، وتجنب للتعميمات التي لا أساس لها ، واحساس بالصلات المتبادلة بين الحركات الفكرية والوقائع السياسية والاجتماعية ، وشعور بنوعية المفكرين الأفراد كما تفصح عنها أعمالهم أيضا • ان الفرد لم يُستغرق في مفهوم عام في اكتشافات تفصيلية لعوالم الفكر الشخصية ، كما هو الشأن في دراسة ماسينيون للحلاج، ولاوست Laoust لابن تيمية، وريتر Ritter لفريد الدين العطار • صحيح أن مفهوما عاما قد كون عملا كهذا : انه الاسلام كنظام فكر ، تم النظر اليه من حيث صلته بالأنظمة السابقة : الاغريقية ، المسيحية واليهودية • ولكن هذا المفهوم ليس شكلا آخر لفكرة « الشرق » كما وصفها السيد سعيد • انه الاسلام مرئيا ليس كوجه معكوس من شيء آخر ، ولكن ضمن طبيعته الخاصة • ومن المؤكد أن هذا مفهوم ملائم لموضوعه • وفي حدود هذا العمل ، فان هؤلاء الذين دعاهم العالم بالمستشرقين ليسوا مرتكبين لما يسميه السيد سعيد « بالاستشراق » •

ان السيد سعيد يعرف أساسا هذا وهو يعترف «بعمل الكثيرين من الباحثين المخلصين» ولكنه في الحقيقة لا يتعامل معه في كتابه • وربما كان وراء ذلك سببان ؛ أحدهما أنه حذف من مسحه الباحثين الذين كتبوا بالألمانية • وقد فعل ذلك لأنه في ألمانيا « لم تكن لأية شراكة وثيقة بين المستشرقين والمصالح القومية الدائمة والمرسومة في الشرق أن تتطور في أي وقت من الأوقات » • وهذا سبب وجيه اذا ما أعطي شروطه الخاصة في الاشارة، ولكنه قاده الى اهمال شيء هام • وثانيها أن العمل في ميدان التاريخ الديني والثقافي ــ بسبب كونه مجهدا وصلدا كما هو الشأن فيه ــ كان في غالبه مملا ، وكانت تعوزه الومضة التي يمكن أن تستهوي ذهن السيد سعيد •

ولكن كان هناك رجل مثير ذو عبقرية بينهم • وقد استدعى جميع قوى ذهن سعيد، انه الفرنسي لوي ماسينيون • ان صفحاته عن ماسينيون هي من بين أفضل صفحات الكتاب • ولكنها بمعنى ما ، تُري كم هو قليل ذاك الذي يمكن أن يقدمه نمط نموذجي « للمستشرق » من مساعدة في فهمه • ان السيد سعيد يدعي أن ماسينيون « في اتجاه واحد ، تبقى أفكاره عن الشرق تماما تقليدية وشرقية Oriental • ولكن الذي يقوله فيه ربما يتركنا مع الانطباع المعاكس • فهو يكتب عن « الذكاء الطاغي ، والعبقرية

الصافيـة ، وعن جـدة عقل ماسينيـون » ؛« الكياسة ، والأسلوب الشخصي ، وعبقريـة الفرد ، ربمـا تتخطى في النهايـة الكوابـح السياسية التي تعمل بشكل غير شخصي مـن خلال التقليد والمحيط القومي » ٠

ان العالم المسلم ، لم يكن في الحقيقـة بالنسبة الى ماسينيون بالمعنى الأكثر عمقا ، منطقة يلاحق فيها بلده أهدافا سياسية ٠ لقدكان مليئا بالرجال والنساء الافراد، المحبوبين، المفهومين ، المدركين في طبيعتهم الفردية ، ولم تكن الصلة بين المسيحية والاسلام صلة وجود وعدم وجود ، ولكنهـا كـانت صلة تبـادل واستبدال ٠ وكما قال البـاحث الفـرنسي جـاك بـيرك Jacques Berque لأولئـك الذين عرفوه ان هنالك أماكن ــ كنيسة معينة في القاهرة وشـارعا معينـا ــ سيكون فيهـا حاضرا على الدوام ٠

أسئلة كهذه يثيرها أيضا القسم الأخـير من الكتاب : « الطور الأخير » ٠ وأطروحـة السيد سعيد هي أن تراث الاستشراق الأوربي قد نقل الى الولايات المتحدة ، وتم التعبـير عنه بلغة العلوم الاجتماعية ، وتجسـيده في مؤسسات ربطت بشـكل وثيـق بالمصالـح والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسـط ، واستخدمت كسلاح في الصراع بين اسرائيل والفلسطينيين ٠ وثانية ٠ من المحتمل أن يكون محقا فيما يتعلق بالصور الشعبية ٠ فالعرب بالنسبة الى الأفلام والسياسيين وجزء كبير من الصحافة هم الظـل الشـرقي البغيض ، الغامض ، الجبان ٠ ولكن مـرة أخـرى ان شكوكا أكبر تثار عندما يكتب عن الباحثين ٠

ان هذه الشكـوك نوعـان : أولهما أن السيد سعيد يختار أسلوبا أو لهجـة معينـة تجعل القارىء مقلقـلا ٠ ان وعيـه بأسلوب الكتاب الآخرين يجعلنا أكثر وعيا بأسلوبه ٠ لقد أخبرنا في بداية الكتاب بطريقة صريحة ومحركة بالدافع الشخصي الذي قـاد جزئيا الى كتابتـه ٠ ان السـيد سـعيد كعـربي فلسطيني يعيش في الغـرب ، يجـد حياتـه « مشبطة للهمة ٠٠٠ نسيج العنصرية ، والقوالب الثقـافيـة الجـاهـزة Stereotypes والامبريالية السياسية ٠ وقبضة الأيديولوجية التي تنزع عن الانسان انسانيته ، المسكـة بالعربي أو المسـلم قوية جـدا بالفعل » ٠ ان اللهجة في هذا القسم الأخير هي لهجة المرء الذي يجاهد لخرق هذا النسـيج ، ونقـده العنيف يمضي في بعض المواضع الى حد اتهام الباحثين بسـوء العقيـدة ٠ ولئن كانت هذه الاتهامات منظمة ومعززة بالشواهد ، فانها ربما كانت عقبات أمـام القول المتعقـل ٠ وحتى في ورودها في موضعين أو ثلاثة ، فانها ربما تسبب استياءً خطيرا وتقود الى عـدم أخذ الكتاب بدرجة الجد التي تنبغي له ٠

وفيما عدا هذا فان المرء الذي يعمـل في حقل الدراسات الشرق ــ الأوسطية ربمـا يجد هذا القسم من الكتاب قديما ٠ ان السيد سعيد لا يناقش هنا النتاج الذي يقدم اليوم ويعبر عنه بالمقـالات والرسائـل العلميـة Monographs وكلمات الأساتـذة ، وانمـا أعمال التركيب ، والتي تجسد بطبيعتها نتاج الماضي ٠ ان أفضل العمل الراهن في أوربـا وأمريكا كلتيهمـا يبدو أنـه قد خـرج على الاطار « الاستشراقي » وعاد بالنقد علـى

نفسه ، وأخصب بأفكار العلوم الانسانية للعصر • والسيد سعيد واع بهذا • فهو يذكر أعمال جاك بيرك ، ومكسيم رودنسون Maxime Rodinson في فرنسا ، وكليفورد غيرتس في أمريكا Clifford Geertz وروجر أوين Roger Owen في انكلترا • ولكنه كان من الممكن أن يمضي الى أبعد من هذا ، ويكتب عن التراث المستمر أو المستعاد للتاريخ الديني في ألمانيا ، وللعمل التاريخي الفرنسي الجديد المتمذج بواسطة الماركسية والمدرسة الملتفة حول مجلة Annales (المهتمة بالتاريخ الاجتماعي) • ان مؤرخا للشرق الأوسط في عصرنا الحاضر ، كلود كهين Claude Cahen لم يذكر مرة واحدة • ان حقل الدراسة هذا يستعيد حيويته ـ مثل جميع الحقول الأخرى تقريبا ـ على يد الباحثين الأمريكيين الشباب : المؤرخين ، الأنتروبولوجيين ، ودارسي الأدب ـ على الرغم مما يقوله عن اهمال الأدب الآن •

ان الكلمة الأخيرة هي : ان عمل اليوم يظل ـ الى حد بعيد ـ يعبر عن تصور أوربي وأمريكي للشرق المسلم « ان العالم العربي والاسلامي يظل قوة ثانوية في ميدان انتاج الثقافة والمعرفة والبحث » • هناك بعض الاستثناءات : فليس ثمة مؤرخ عثماني يمكن أن يهمل عمل خليل انالجك Halil Inalcik ومؤرخين أتراك عظام آخرين • ولن يستطيع دارس لشمال افريقيا أن يتجاهل أفكار عبدالله العروي الأصيلة والأساسية • ولكن ، بشكل عام ، يبقى من الصحيح أن دارس العرب والفرس الغربي يظل يعمل ضمن بنية أفكار خلقت من قبل دارسين غربيين آخرين • ان العرب والفرس « كقوة شعر بها وخبرت على نحو حقيقي » ما زالوا غير حاضرين في الثقافة الغربية • ولكن هذا يحتاج الى كتاب آخر يشرح لماذا كان الأمر على هذا النحو •

* * *